دراسة في التوجه القيمي في الإبداع الروائي لإحسان عبد القدوس ومسار تطور فكره السياسي

A Study on the Value Orientation in the Novelistic Creativity of Ihsan Abdel Quddous and the Path of Development of Political Thoughts

د.آى خه شيو ، قاوييفي(*)

الملخص

إحسان عبد القدوس كاتب عربي مصري المولد. في عمر من الإبداع الأدبي، أعطى الوضع السياسي المضطرب والتجربة الاجتماعية الغنية والظروف البيئية التاريخية الخاصة لإحسان عبد القدوس وجهة نظر ملاحظة مواتية ومحتوى موضوعي غني في خلق الأدب النسائي والأدب السياسي، مما جعله أحد أبرز الروائيين والصحفيين في مصر. يجمع البحث هذا بين الخلفية التاريخية المعقدة لمصر وتجربة النمو الفريدة لإحسان وخلفيته العائلية، ويستخدم بعض الأعمال

*آى خه شيو(AI Hexu)، أستاذ مساعد في كلية اللغات الأفروآسيوية وثقافتها في جامعة الدراسات الأجنبية بمقاطعة قوانغدونغ للصين(GDUFS,CHINA)، وتخصصه الدقيق الأدب العربي الحديث، والدراسات العربية.

قاو ييفي(Gao Yifei)، محاضرة في كلية اللغات الأفروآسيوية وثقافتها بجامعة الدراسات الأجنبية بمقاطعة قوانغدونغ للصين(GDUFS, CHINA)\ باحثة جزئية في معهد الدراسات الشرقية بجامعة الدراسات الأجنبية بمقاطعة قوانغدونغ للصين، طالبة لدراسة الدكتوراه في جامعة تيانجين العادية الصينية حاليًا ،تخصصها في الأدب المقارن والأدب العربي. وكلا منهما من المؤلف الأول.

التمثيلية للكاتب لإظهار أفكار الإبداع الأدبي السياسي لإحسان ومسار تطوره الفكري.

الكلمات المفتاحية: إحسان عبد القدوس، تطور الفكر السياسي، الرواية السياسية

Abstract

Ihsan Abdel Quddous is an Egyptian-born Arab writer. In a lifetime of literary creation, the turbulent political situation, rich social experience and special historical environmental conditions gave Ihsan Abdel Quddous a favorable observation perspective and rich subject matter content in the creation of women's literature and political literature, making it a One of Egypt's most outstanding novelists and journalists. The article combines Egypt's complex historical background and Ihsan's unique growth experience and family background, and uses some of the writer's representative works as an opportunity to demonstrate Ihsan's political literary creation ideas and its evolution trajectory.

Key Words: Ihsan Abdul Quddus, the development of political thought, the political novel

المبحث الأول: نبذة عن إحسان عبد القدوس

هو إحسان مُحَمَّد عبد القدوس أحمد رضوان، ولد في أول يناير ١٩١٩م بالقاهرة، وكان والده مُحَمَّد عبد القدوس مهندسًا يهوى التمثيل فترك الهندسة وتفرغ للتمثيل واشتهر كممثل مسرحي وسينمائي.

والدته روز اشتغلت بالتمثيل حتى أصبحت الممثلة الأولى في عالم المسرح العربي، ثم تركت المسرح في عام ١٩٢٤م، وأصدرت مجلة روز اليوسف عام ١٩٢٥م.

دراستُه: درس في مدرسة السلحدار الابتدائية بالقاهرة من عام ١٩٢٥م حتى عام ١٩٢٧م ثم في مدرسة خليل أغا الابتدائية بالقاهرة من عام ١٩٢٧م حتى عام ١٩٣١م، ثم درس الثانوية في مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالقاهرة من عام ١٩٣٢م حتى عام ١٩٣٧م، ثم التحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة من عام ١٩٣٧م حتى عام ١٩٤٢م.

عمله: بعد التخرج عمل لمدة سنة كمحامي في مكتب إدوارد قصيرى كما عمل محررًا بمجلة روز اليوسف التي أسستها والدته.

كتب في عام ١٩٤٥م مقالاً بعنوان: ((هذا الرجل لابد أن يذهب))، ضد اللورد كيلرن المندوب السامي البريطاني، فدخل السجن لأول مرة وبعد خروجه عينته والدته رئيساً لتحرير مجلة روز اليوسف، وتولى رئاسة تحرير المجلة حتى عام ١٩٦٤م.

عين رئيسًا لتحرير أخبار اليوم من ١٩٦٦/٦/١٢ حتى ١٩٧٤/٥/٢٤، ورئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم من ١٩٧١/٧/٢٠ حتى ١٩٧٤/٥/٢٤.

عين كاتبًا متفرغًا بالأهرام من ١٩٧٤/٥/٢٤ حتى وفاته في ١٩٩٠/١/١١، وأيضا عين رئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام من ١٩٧٥/٣/١٢ حتى ١٩٧٦/٣/٢٨.

سجن عام ١٩٥٤م بعد ٣ مقالات نشرت بمجلة روز اليوسف هاجم فيه مجلس قيادة الثورة ((الجمعية السرية التي تحكم مصر)) وأودع بالسجن الحربي في زنزانة انفرادية لمدة ثلاثة أشهر.

عين عضوًا في مجلس إدارة مؤسسة السينما عام ١٩٦٩م، كما عين عضوًا بالمجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٧م.

حاز في سنة ١٩٩٠م جائزة الدولة التقديرية في الآدب. وحاز على عديد من الجوائز من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه.

كتب إحسان عبد القدوس أكثر من ستمائة قصة، تحول ٤٩ رواية منها إلى نصوص للأفلام و٥ روايات تم تحويلها إلى نصوص مسرحية و٩ روايات أصبحت مسلسلات إذاعية و١٠ روايات تم تحويلها إلى مسلسلات تليفزيونية إضافة إلى ٦٥ كتابا من رواياته ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والأوكرانية والصينية والألمانية.[١]

المبحث الثاني: التأثير الذاتي في تطور الفكر السياسي عند إحسان

أولًا: عائلتُه

إن مرحلة الطفولة لإحسان لها أثر كبير في بناء شخصيته ومدى تفاعله وتكيفه في المجتمع، ولا شك أن الأسرة تضطلع بمسؤولية وضع أساس بناء شخصية إحسان لأنها تمثل الوحدة الاجتماعية الأولى في حياته والتي يتأثر بها نموه الانفعالي والعاطفي ويتشكل وفقا لها أولى

تفاعلاته وعلاقاته الاجتماعية.

إحسان عبد القدوس عاش أيام شبابه مع أهله الذين كانوا يقيمون بقرية صغيرة هي ((كفر ميمونة)) التابعة لقرية أكبر هي ((شبرا اليمن))، مركز زفتى، محافظة الغربية.

وجدُّه المرحوم الشيخ أحمد رضوان المصري الأصل، كان من خريجي الجامع الأزهر ويعمل رئيس كتاب بالمحاكم الشرعية وهو بحكم ثقافته وتعليمه متدين جدًا وكان يفرض على جميع العائلة الالتزام والتمسك بأوامر الدين وأداء فروضه والمحافظة على التقاليد بحيث كان يحرم على جميع النساء في عائلته الخروج إلى الشرفة بدون حجاب.[٢] والناقد رجاء النقاش قال عنه أنه: ((سليمان زيدان من عرب الصالحية، وقد اشترك في ثورة عرابي، وسجن وهرب من السجن، وغير اسمه إلى رضوان))[٣]. ((وكان متحفظًا إلى حد التزمت في كل ما يفرضه الإسلام. ورغم ذلك فكان متميزًا بتقدير الفن وكان يتردد عليه كبار المطربين والفنانين على أيامه كأصدقاء، كما كان مشتركًا في القضايا السياسية وكان كثيرا من قادة الثورة منذ أيام مصطفى كامل إلى أيام سعد زغلول يعهدون إليه بالإشراف على شؤونهم إذا اضطروا إلى الهجرة خارج مصر.))[٤]

ووالده مُحَمَّد عبد القدوس ووالدته السيدة فاطمة اليوسف التي عرفت باسم روز اليوسف كلاهما كان فنانا. درس مُحَمَّد عبد القدوس الهندسة في كلية الهندسة التابعة لجامعة فؤاد الأول ((جامعة القاهرة الآن))، وبدأ العمل موظفًا في الحكومة كناظر مدرسة الأقصر الصناعية ثم ترك الحكومة وتفرغ للفن، وكان كاتبًا يكتب المسرحيات والشعر والزجل ويمثل على المسرح ويلقي مونولوجات يضع كلماتها وألحانها. أقبل على الفن مغرمًا بالتمثيل، ولم يحرص على بناء مستقبله الوظيفي والأسري، ولم يرض الاستجابة لدعوة أبيه بالتخلي عن الفن، وزاد المسألة تعقيدًا بتعلقه بفاطمة اليوسف ممثلة المسرح، فسعى الوالد لنقله إلى إحدى مدن الصعيد حتى يقطع صلته بالقاهرة.

عين مُحَمَّد عبد القدوس ناظرًا لمدرسة الأقصر الصناعية، ولكن العمل الجديد والمكان البعيد لم يستطعا أن ينتزعا حبه للفن وشوقه للفنانة، فبقى هناك عامًا أو يزيد قليلا على مضض، ثم سرعان ما استقال من الوظيفة، وأسرع إلى القاهرة لتجرفه تيارات الفن ولياليه، وعقد قرانه على

فاطمة اليوسف وأنجبت إحسان. عندئذ قرر بعد أن أصبحت له هذه الأسرة الجديدة الصغيرة أن يقبل العمل مهندسًا بوزارة المواصلات من أجل الدخل المنتظم، لكنه كان ملكًا خالصًا للتمثيل والتأليف المسرحي وغناء المونولوجات[٥].

بدأ إحسان كتاباته الأدبية منذ وقت مبكر في حياته متأثرًا بوالده مُحَمَّد عبد القدوس، حيث كان يعتكف في منزله ليكتب القصص والأشعار، حيث قدم أول مسرحية له وهو في سن العاشرة بعنوان ((العلم علم التلميذ... طلع لسه شريف)) ولم يكتف بكتاباته، بل قام بتمثيلها وإخراجها أمام جمع من أطفال حارته، وبالطبع كان بدروم المنزل هو المسرح الذي مثل عليه، وفي السابعة عشرة من عمره كتب قصصًا أقرب إلى الشعر المنثور، لكنها كانت مجرد خيالات مراهق.

ووالدته فاطمة اليوسف لبنانية الأصل، وبدأت ممثلة تعيش في وسط المسرح منذ كانت في العاشرة، والتقيت مع والده عام ١٩١٦م، ومع بداية حياة فاطمة اليوسف ومُحَمَّد عبد القدوس معًا يتلمس كل منهما ما في الآخر من تناقض لشخصيته، مُحَمَّد عبد القدوس إنسان يسبح في دنيا الخيال لا يحسب حسابا لغده، بينما فاطمة اليوسف تعيش في دنيا الواقع تعد لغدها قبل يومها هكذا علمتها الأيام وغدرها. كل شيء عندها أرقام تحسب وانتصارات تضاف لسجل حياتها، أخيرًا كانا قد انفصلا لاختلاف نزعاتهما الفنية. وأنجبت إحسان في أول يناير ١٩١٩م، وأخذ ابنهما مُحَمَّد بعد الانفصال وعاش إحسان تحت رعاية عمته السيدة نعمات رضوان.

وقد أثر على اختلاف المجتمعين الذين يعيشهما إحسان تأثيرًا أساسيًا في تكوين شخصيته وعقليته، مجتمع الجد المحافظ ومجتمع الوالدين المتحرر المنطلق.

كما يقول إحسان عبد القدوس في السيرة الذاتية: **((وقد بدأت منذ وعيت وأنا أتساءل من منهما المجتمع الصالح... مجتمع جدي أم مجتمع أبي وأمي... ووجدت نفسي حائرًا بين المجتمعين وهو ما عودني ألا أستسلم للواقع أبدًا إلا بعد أن أدرسه وأفكر فيه إلى أن أثور عليه أو أعترف به... وكنت منذ طفولتي أرفض التقاليد الاجتماعية لأن التقاليد أيامها كانت تظلم أمي... ولكن أحدد تصرفاتي الاجتماعية بعد تفكير وعلى مسؤوليتي الخاصة...))**[٦].

من هنا يتضح لنا أحد المفاتيح الهامة في شخصية كاتبنا الكبير إحسان عبد القدوس ألا وهي المسالمة أو المحايدة. والدته ووالده يمثلان طبقة المثقفين الجديدة، وجده يمثل طبقة المثقفين القديمة، وبينهما تناقضات أدت إلى أن يتردد إحسان عبد القدوس في أن يقدر المجتمع الصالح. فقُدِّر له أن يختار الطريق الثالث ألا وهو الطريق المستقل لنفسه. فإحسان عبد القدوس بدأ بمسك القلم وكتب أول مسرحية له وهو في العاشرة من عمره، وكان يحاول أن يقتدي بأبيه في كتابة المسرحية حتى يكون أديبًا. ولكن أمه لا تريده أن يكون مجرد أديب ولكن تريده أن يتفرغ للصحافة وللعالم الصحفي والسياسي حتى يكبر ويتحمل مسؤولية مجلة روز اليوسف، حتى أنها بعد أن كبر قليلاً كانت ترفض أن تنشر له أي عمل أدبي في روز اليوسف. ومن هنا نجد التناقضات الثانية بين أبيه وأمه. مع أن إحسان عبد القدوس يريد أن يكون أديبًا ولكن أمه تريده أن يكون صحفيًا. ومن هنا قرر إحسان أن يكون أديبًا وصحفيًا دون تعمد أديب لأبيه وصحفي لأمه. وقد اهتم بالدراسات السياسية واشترك اشتراكًا فعالاً في كل الثورات والمظاهرات السياسية منذ أيام كان طالبًا في المدرسة الثانوية.

وكانت كل هذه التناقضات هي السبب المباشر في صنع إحسان عبد القدوس الذي أضاف الكثير للمكتبة العربية، وربما لو لم يعش إحسان في هذه التناقضات لما كنا استمتعنا به كاتبًا روائيًا وصحفيًا قديرًا وسياسيًا لامعًا.

ويمكن أن ترجح الدراسة أن هذه المتناقضات هي التي صنعت عالم إحسان، فإن والد إحسان هو الفنان مُحَمَّد عبد القدوس الذي نشأ وتربى في بيئة متدينة، حيث والده أحد علماء الأزهر، أما والدته السيدة فاطمة اليوسف، فقد وُلدت في إحدى قرى لبنان، وعرفت اليُتم والغربة منذ بداية حياتها، وبطريقة أو بأخرى جاءت القاهرة لتبدأ أولى خطواتها في عالم التمثيل في فرقة ((إسكندر فرح وعزيز عيد))، فتتعرف على مُحَمَّد عبد القدوس المهندس – وقتها – بالطرق والكباري، فيقرران الزواج برغم إرادة الأب العالم الأزهري الذي يتبرأ منه ويطرده من بيته، ليستقيل الابن المتمرد من وظيفته الحكومية ويتفرّغ للفن ممثلاً ومؤلفًا مسرحيًا.

هناك في البيت الكبير((بيت الجد في العباسية))، وجد إحسان بديلاً عن والدته، وجد عمته

السيدة نعمات هانم التي أغدقت عليه الحب والحنان بلا حدود، إلى أن قرر وهو في سن الثامنة عشرة أن يعود إلى أمه ليعيش معها، لكنه في الوقت نفسه لا ينسى فضل نعمات هانم التي يقول عنها:((**إذا كانت والدتي قد أعطتني ووهبتني الحياة، فإن عمتي نعمات هانم رضوان أعطتني الاستقرار في الحياة بلا ثمن وبلا مقابل، سوى إحساسها الأصيل بحب ابن أخيها وأملها في أن ينجح في حياته**))[٧].

قرر إحسان في سنه الثامنة عشرة أن يترك بيت جده لأبيه، وينتقل للعيش مع والدته السيدة روز اليوسف، التي كانت قد تزوجت في أواخر عام ١٩٢٣م من الفنان زكي طليمات، والحقيقة التي أكّد عليها إحسان أنه كان طفلاً محظوظًا للغاية، ففي حين كان لديه عمة تحبه وترعاه، وأم تبذل جهدًا كبيرًا لتُشعره بالسعادة وتُعطيه من الحنان مخزونًا أسبوعيًا يعيش عليه، إلى أن يعاودها في الأسبوع التالي، كان زوج والدته زكي طليمات يحبه حبًا عظيمًا، مما جعله ينسى تمامًا أنه زوج والدته.

فلاحظ الطفل الصغير مدى التباين بين نوع الحياة في بيت جده ونوع الحياة التي تعيشها أمه الفنانة المعروفة ثم الصحفية، وقبل هذا كله المرأة المتحررة التي لا تشهد جلساتها في الغالب إلا الرجال. تصادقهم وتحاربهم، تعمل معهم وتكافح، ولها بينهم مكانة واحترام.

ويقول إحسان: ((**كان الانتقال بين هذين المناخين يصيبني في البداية بما يشبه الدوار الذهني حتى اعتدت عليه بالتدريج واستطعت أن أعد نفسي لتقبله كأمر واقع في حياتي، لا مفر منه... لقد استطعت التوفيق بين هذه المتناقضات في حياتي بحيث لم نفسد شخصيتي كإنسان، ولم تقض على مواهبي كفنان وأديب بالحب، الحب هو الذي أعانني على مواجهة كل التناقضات في حياتي الأولى... بل وطوال مسيرتي بعد ذلك، كنت أحب جدي وكان هذا الحب يفرض على كل أنواع الاحترام تجاه جدي العالم المتدين الزاهد في الدنيا، كنت أحب قيم جدي وأفكاره بل كنت أعشق تقاليده التي كان يفرضها علينا، وعلى الجانب الآخر كنت أحب أبي وأمي مدفوعاً أولاً بعاطفة البنوة، ولقد دفعني هذا الحب الذي كنت أكنه للقطبين المتنافرين**

في حياتي إلى التعميق في معرفة وأدراك وجهة نظر كل منهما بحيث يمكنني الدفاع عنه في مواجهة الطرف الآخر.))[٨]

فلقد كان الحب هو وسيلة للتغلب على المتناقضات التي يعيش فيها، وعليه الحب أن يحترم وجهات النظر المختلفة ويحترم الرأي الآخر. ويحاول أن يتعرف دائمًا على الدوافع التي تدفع الآخرين للاختلاف، وعندما يعارض فإنه لا يعارض لمجرد المعارضة وإنما يعارض ليصل إلى عيون الحقيقة، وربما كانت هذه إحدى العوامل التي دفعته لدراسة الحقوق.

وروز اليوسف في حياة إحسان عبد القدوس ليست شخصًا هامًا فقط أو مجرد أم حنونة ولكنها مؤسسة اجتماعية وثقافية تمتلك رؤيا مستقبلية واعية صبتها كلها في مجلتها وفي ابنها.

فإن كانت عمته قد أعطته الحب والحنان، فقد أعطته أمه الحرية ألا وهي حرية السياسة والحياة.

ثانياً: دراسته وعمله

درس إحسان في كلية الحقوق جامعة القاهرة، وهذه الدراسة جعلته يهتم بالحقائق التي خلف القضايا ويكترث للأفكار السياسية التي حرص على التعرف عليها بسبب تأمله لحالة الأحزاب وتخبطها الدائم بين عدد من السياسات التي لا يحكمها منهج أو تُسْندها فلسفة ولا جذور نضالية واعية، ويولى إحسان أهمية كبرى لمصدر هام من مصادر فكره السياسي وهو أحد الأصدقاء المثقفين الذين تعرف عليهم، وهو أبو بكر حمدي سيف النصر.

قال إحسان عبد القدوس: **((كان أبو بكر قد التحق بجامعة كمبردج فترة، استطاع خلالها أن يدرس الفكر الشيوعي دراسة كاملة، وعاد إلى مصر... وكان صديقاً لي منذ كنا أطفالاً... وأحس أبو بكر بحريتي الفكرية، النابعة من رفض للواقع المتعفن للأحزاب المصرية ورغبتي في معرفة الطريق الذي يقودني إلى خدمة بلدي... وبدأ يمدني بالكتب والنشرات التي تيسر لي دراسة الفكر السياسي دراسة علمية منهجية... وعن طريق ما أخذته من المرحوم (أبو بكر) من دراسات وما تلقيته في كلية الحقوق من مواد سياسية... استطعت أن أضع يدي على مفتاح الطريق لخط**

سياسي، آمنت به طوال حياتي... طالباً ثم محامياً وصحفياً وأديباً... خط محركه الأول... إيماني بالحب كقوة قادرة على كل تناقضات الفرد والمجتمع... اعتزازي بحريتي الشخصية ما دمت لا أوذي أحدًا...

كنت أحضر الندوات السياسية التي يدعوني إليها زميل دراستي (زكي هاشم) وزير السياحة السابق... وأحضر في نفس الوقت (الاجتماعات) التي يعقدها صديقي الشيوعي أبو بكر سيف النصر... ووجدتني في النهاية غير قادر على الاستمرار معه... لأني مصر على الاحتفاظ بحريتي في التفكير ومناقشة أي رأي لا يعجبني حتى ولو كان رأي ماركس ولينين...! وقد قلتها له يومها... وما زلت على استعداد لتكرارها ألف مرة كل يوم... أنا أرفض الاقطاع ومستعد للموت في سبيل محاربته ولكنني ضد التسلط سواء أتى من أعلى أم من أسفل والحب هو صانع كل المعجزات وهو الحل الأمثل والوحيد لكافة المتناقضات...))[٩].

ثم تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة واشتغل بالمحاماة بعد تخرجه. ولكن في الواقع كان متفرغًا لمهنة الصحافة. لأنه ابن صاحبة مجلة ((روز اليوسف)) فتمتع إحسان عبد القدوس بقدر كبير من الحرية في كل ما يكتب نظرًا لأن والدته منحته حرية النشر، يضاف إلى ذلك أن إحسان عبد القدوس لم يكن ينتمي إلى أي حزب أو رئيس وزراء أي أنه لم يكن كاتب سلطة، ولم تقيده صداقته لقريب أو بعيد، على عكس ما كان متبعًا في فترة نشأته الصحفية في الأربعينيات.

أي أنه كان في هذه الفترة على اتصال بكل التنظيمات السياسية، لكن لم تكن لديه رغبة في الانضمام لأي منها أو النظر إلى اتجاهها السياسي، لذلك نستطيع القول أن إحسان عبد القدوس لم يحترف الصحافة لأنه نشأ في بيئة صحفية، لأن ثقافته الصحفية طبيعية وليست متعمدة، وإن كانت ساعدته الظروف على إبراز موهبته الفذة في الصحافة.

وقد بدأ تفكيره الوطني والسياسي بالتطور السريع إلى رفض كل الواقع السياسي الذي تعيشه مصر، وأصبح – حتى على خلاف مع أمه – يعتبر مفكرًا وكاتبًا ثوريًا يعتمد على فكر

الجيل الجديد الذي انتمى إليه لا على فكر الجيل الذي سبقه، وكان مساهمًا بالرأي الذي يكتبه في كل الثورات التي تقوم في مصر بما فيها ثورة ٢٣ يوليو.

كما يقول: **((وقد استطعت أن أثير قضايا سياسية هامة كان أشهرها قضية الأسلحة الفاسدة... وهي قضية أثارت لي متاعب كثيرة فقد قبض عليّ ودخلت السجن ثلاث مرات، ووقفت أمام النيابة للتحقيق معي عشرات المرات، وحاولوا اغتيالي أربع مرات... وكل رئيس دولة كان يدخلني السجن أو حتى كان يحاول اغتيالي كان يعتذر لي فيما بعد لأنهم كانوا كلهم يعرفون أني لست في خدمة أحد ولا أعبر عن رأي أحد ولكن دائما كاتب حر في رأيه))**[١٠].

((وبعد أن اطمأنت والدتي على أني استطعت أن أحقق وجودي كصحفي وكاتب سياسي، منحتني نفس الحرية في نشر انتاجي الأدبي... ومن يومها وأنا أنشر القصص التي أعتز بها اعتزازي بكل تاريخ حياتي... ومنذ أن بدأت أعمل في روز اليوسف وأنا أتمنى أن أنشر مقالاتي وقصصي في الصحف الأخرى حتى أثبت لنفسي وللناس بأني لا أنشر في روز اليوسف لمجرد أنها مجلة أمي بل أني أستطيع أن أنشر في أي صحفية.))[١١]

وبعد أن ترك مهنة المحاماة ووهب نفسة للصحافة والأدب فقد شعر أن الأدب والصحافة بالنسبة له كانا من ضروريات الحياة التي لا غنى عنها، وأصبح بعد أقل من بضعة سنوات صحفي متميز ومشهور، وروائى، وكاتب سياسي، وبعد أن عَمِل في روز اليوسف، تهيات له كل الفرص والظروف للعمل في جريدة الأخبار لمدة ٨ سنوات ثم عمل بجريدة الأهرام وعين رئيسًا لتحريرها.

كان لإحسان شخصية محافظة للغاية، لدرجة أن شخصيته تتناقض مع كتاباته، فالبيئة التي تربى فيها جعلت منه إنسانا صعبا للغاية، فقد كان ملتزما بالمعنى الاجتماعي، فلم يكن يسمح لزوجته بأن تخرج من البيت بمفردها، وعندما يكون مسافرًا يطلب منها ألا تخرج، بل وترفض

كل الدعوات التي توجه إليها مهما كانت، بل إنه كان صعبا معها في موضوع الملابس، لدرجة أنه كان يشترط عليها أن تكون ملابسها محتشمة لا تصف ولا تشف.

إن أدب إحسان عبد القدوس يمثل نقلة نوعية متميزة في الرواية العربية إلى جانب أبناء جيله الكبار من أمثال نجيب محفوظ ويوسف السباعي ومُحَمَّد عبد الحليم عبد الله، لكن إحسان تميز عنهم جميعا بأمرين أحدهما أنه تربي في حضن الصحافة، وتغذى منذ نعومة أظفاره على قاعدة البيانات الضخمة التي تتيحها الصحافة لاختراق طبقات المجتمع المختلفة وكانت الصحافة، وصالون روز اليوسف والعلاقات المباشرة بكبار الأدباء والفنانين والسياسيين ونجوم المجتمع هي المنبع الذي أتاح لإحسان عبد القدوس أن يصور الجوانب الخفية في الحياة المصرية ويتخطي بذلك كثيرًا من الحواجز التي حالت بين زملائه وبين معرفة هذه البيانات، أما الميزة الثانية لأدب إحسان فهي أنها كان عميق الإيمان بقضية الحرية، بمختلف مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد تأثر إحسان عبد القدوس في حياته بثلاث سيدات وهن والدته وعمته وزوجته، كما تأثر في بداية مسيرته الصحفية بثلاثة من أعلام الصحافة والثقافة في مصر وهم: مُحَمَّد التابعي عميد الأسلوب الصحفي المعاصر، ومحمود عزمي صاحب النظرة ((التقدمية)) في مشاكل الحياة والمجتمع والإنسان، وعباس محمود العقاد ذو الجرأة والبصيرة، إلى جانب تأثره بجو الحرية والجرأة في بيئة مجلة ((روز اليوسف)).

وفي مهنة الصحافة وفنها يعترف إحسان أن أستاذه الأول هو مُحَمَّد التابعي، فقد قرأ له في السياسة وهو في العاشرة، وكان يفهمه هو رغم أنه لم يكن يفهم في السياسة، كان يعجب بقوة أسلوبه والنغم المريح السهل الذي يكتب به، وهذا دفع إحسان في صباه أن يدمن قراءة كل الصحف والمجلات باحثا عن نفس قوة الجذب. ويعترف إحسان أن التابعي ليس وحده هو الذي يتطور بأسلوب العرض الصحفي، ولكنه كان أيامها يمثل أبعد مراحل التطور.

والتابعي كما هو معروف دخل مجال الصحافة وكتابة المقال السياسي بعقلية وموهبة ناقد مسرحي أو ناقد فني، والصحافة تعتمد على الاتصالات، والنقد يعتمد على المشاهدة وأسلوب

النقد غير الأسلوب الخبري أو النقد التحليلي. وروز اليوسف في بدايتها أيام التابعي كانت تعتمد على أسلوب النقد، كلها كاريكاتير، التابعي يكتب كاريكاتير وصاروخان يرسم كاريكاتير، وقد كان هذا المكون من مكونات إحسان الكاتب والصحفي.

وتأثر إحسان أيضا بالتابعي، وكما يعترف أنه علمه أن يتقن الإنجليزية ويقرأ بها خاصة، كتب الأدب والتاريخ. وهذا أثر في أسلوب التابعي الذي جمع بين القراءات العربية والإنجليزية، وأثر هذا التداخل الموسيقي بين اللغتين أثمر أسلوبا سلسا سريعا واضحا له رنينه وجاذبيته، كون أسلوب إحسان الذي تميز به في ممارسته الصحافة والأدب[١٢].

وإحسان عبد القدوس خرج في أسلوبه من ((معطف)) التابعي، ثم ارتقى بنفسه وموهبته حتى أصبح واحدًا من أكبر أصحاب الأساليب في الصحافة العربية فعبارته سهلة موسيقية مليئة بالعذوبة والجاذبية والجمال.

وتعلم إحسان عبد القدوس من محمود عزمي نظرته ((التقدمية)) إلى مشاكل الحياة والمجتمع والسياسة والإنسان وغيرها. فقد كان محمود عزمي كاتبًا ومفكرًا كبيرًا وكان من أعظم دعاة التجديد والتقدم، وقد ذهب به التطرف في هذا المجال إلى حد الدعوة إلى لبس ((القبعة)) بدلاً من الطربوش، والعمامة، فقد كانت القبعة عنده رمزًا للحضارة الحديثة والانتماء إليها.

وقد ظل إحسان عبد القدوس طيلة حياته يكتب بهذه الروح التقدمية التي تدعو إلى التجديد وكسر القيود، وخاصة في مجال العواطف الإنسانية والعلاقات الاجتماعية وهو صاحب أكبر دعوة في العصر الحديث لتحرير المرأة عاطفيًا وعقليًا بعد الرائد الأول قاسم أمين.

أما العقاد فقد تعلم منه إحسان عبد القدوس جرأة الكاتب، وفروسية صاحب القلم، والاشتباك العنيف مع الأفكار الخاطئة والمواقف التي ينبغي همدها لإفساح الطريق أمام عالم جديد... متقدم ومستنير.

كما شهدت هذه الفترة أيضًا ظهور أعلام كثيرة في الأدب والفكر، وتألقت أقلام كان لها دور بالغ الأهمية في تحقيق الاستنارة وتنمية الوعي الثقافي والقومي في أرجاء الأمة. ولا غنى لكل ثورى عن الثقافة، ولا غنى لكل من يبحث عن الحرية من الاستناد إلى وعي تاريخي وفكري يعمق رؤيته.

ظهر نضوج إحسان عبد القدوس صحفيًا منذ دراسته الجامعية، حيث درس فيها التاريخ السياسي، والمبادئ والنظريات السياسية المختلفة، حتى صار صحفيًا يعتمد على اسمه ((إحسان عبد القدوس)) وليس ((إحسان بن السيدة فاطمة اليوسف))، وهو ما أثبته إحسان بعمله في مجلة ((آخر ساعة)) أثناء توقف مجلة ((روز اليوسف)) عن الصدور في عام ١٩٣٤م، واستمر في عمله حتى بعد عودتها للعمل بعد ثلاثة أشهر، ولم يكتف إحسان بالعمل في ((آخر ساعة)) بل عمل في جريدة ((الزمان)) مع إدجار جلاد[١٣]، ثم عمل في ((جريدة المصري)) التي كتب فيها مجموعة كبيرة من المقالات في فترة الغليان الذي سبق ثورة ٢٣ يوليو.

ومع إصدار السيدة فاطمة اليوسف لمجلتها الشهيرة ((روز اليوسف)) اتجه إحسان عبد القدوس بكل حواسه مجال الأدب، لكن والدته رفضت وبشدة أن يتحول إحسان إلى أديب كما قلت سبق، لأنها أرادته سياسيًا من الطراز الأول، لذلك أن الصحافة أخذت منه جهده وعواطفه، فاتجه بقوة إلى الخبر والمقال – وهذه العاملة من العوامل الهامة التي دفعته إلى اهتمام عالم السياسة وفاسدة الوزراء – حتى غلب عليه الطابع الصحفي، وفي ذلك يقول دكتور الطاهر مكي: ((جاءت قصص إحسان عبد القدوس الأولى التي نشرها في مجموعتي ((صانع الحب)) و((بائع الحب)) مجرد ذكريات لشاب يزور أوروبا، وكتبها بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الصحفي، حتى أنه كان يقطع سياق القصة ليصف البلد، أو يتكلم عن شخصية التقى بها... وعندما نشر روايته ((أنا حرة)) ١٩٥٢م جاءت تحقيقا صحفيا أكثر منها رواية أدبية، وكان هذا عيبا خطيرا فى تقنية القصة أدركه واعترف به فيما بعد، وأخذ نفسه على تجاوزه والتخلص منه، وساعده على ذلك أن كتابة المقال العنيف المثير الذى يشد أعصابه القراء لم يكن متاحا بسهولة بعد أن تمكنت الثورة، فوجد المجال فسيحا في القصة والرواية، وفى إسقاطاتها ورموزها ما يتيح له أن يعبر عن كل ما يريد دون خشية من ملاحقة أو مصادرة، فأقبل على كتابتها بجدية، ومع المران والدربة والمثابرة والزمن أخذت شخصيته الأدبية تتطور وتنضج وعيوبه الفنية تقل وتذوب، إلى أن امتلك ناصية الفن الروائى كاملة))[١٤]. ويعلق إحسان عبد القدوس على هذه النقطة في مقدمة كتابه الذي أصدره في عام ١٩٤٩م قائلاً: **((إن الصحفي حينما يكتب**

يسرد وقائع، والأديب عندما يكتب يجنح إلى الخيال، وقصص مجموعة (صانع الحب) ليست وقائع ولا خيالا، بل إنما هي الواقع في إطار الخيال، أو هي الخيال في حدود الواقع))[١٥].

وكان له علاقات عميقة مع كبار الساسة والفنانين والكتاب ورجال المال تحت مظلة أمه في البداية ثم استمرت وتطورت وتعددت بأسلوبه الخاص وموهبته الشخصية وسجياته الأخلاقية، وكانت هذه العلاقات الواسعة في الداخل والخارج ذات أثر بالغ في تمكينه من إنجاز أغلب إن لم يكن كل أعماله الصحفية والأدبية السياسية.

على سبيل المثال كان في الخامسة أو السادسة من عمره يلعب مع أمير الشعراء أحمد شوقي صاحب العمارة التي تقيم أمه فيها بحارة جلال المتفرعة من شارع عماد الدين، وكان شوقي يجيء كل يوم ويجلس أمام البدروم ويقيم شبه ندوة ويحضرها التابعي وسعيد عبده وحافظ إبراهيم.

وهكذا في كل خطواته كان يلتقي بالمشاهير والسياسيين العظماء ومحركي الأحداث، وكانت علاقات الصداقات العميقة أو السطحية، القريبة أو البعيدة، هي التي تزوده بالأسرار والمعلومات التي تمثل المادة الرئيسية والفاعلة في إعداد تحقيق صحفي وأدبي، وهي خامة جيدة لمقال خطير وهيكل أساسي لا ينقصه إلا خياله لكي يكتب رواية لا تعتمد على الفكر قدر اعتمادها على تفاصيل العلاقة السرية التي لا يستطيع أحد أن يكشفها[١٦].

بدأ يبحر في أغوار عالم السياسة، تسانده جرأته ووقوفه إلى جانب الحق، وكرهه للفساد والظلم، لذلك تميزت مقالاته بالشجاعة والصراحة في تحليل ونقل الصورة كاملة وواضحة. ومن هنا نشأت الفكرة السياسية المبكرة عند إحسان من خلال مقالاته وأقواله أثناء فترة عمله في جريدة روز اليوسف، يقول رجاء النقاش لقد خاض إحسان عبد القدوس عدة معارك سياسية دخل السجن فيها ثلاث مرات. الأولى في سنة ١٩٤٥م عندما كتب مقاله الشهير بعنوان ((هذا الرجل يجب أن يذهب)) وكان هذا الرجل هو اللورد كيلرن، المندوب السامي البريطاني في القاهرة حينئذ يعتبر أقوى رجل في مصر، ولكن إحسان لم يرهبه منصبه، وانطلق يهاجمه

وطالب بطرده من مصر، وكان محمود فهمي النقراشي رئيسا للوزراء فصادر المجلة وقبض على إحسان وأودع سجن الأجانب[١٧].

أما المعركة الثانية فكانت معركة الأسلحة الفاسدة عام ١٩٤٨م، التي كانت أحد أسباب ثورة يوليو ١٩٥٢م.

ثم كانت المعركة الثالثة التي خاضها إحسان عبد القدوس في عام ١٩٥٠م عندما حرر خبرًا في روز اليوسف عن أحد الوزراء في الحكومة ينقل أسرارًا إلى السفارة الأمريكية، وأحدث الخبر زوبعة كبيرة، مما اضطر فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك إلى حبسه، ولم يستمر حبسه مدة طويلة فسرعان ما أطلق سراحه.

ثم جاء حبسه للمرة الثالثة جراء نشره مقاله الشهير عن ((الجمعية السرية التي تحكم مصر)) خلال الأزمة الشهيرة المعروفة بأزمة مارس ١٩٥٤م، وفيه طالب بإبعاد الجيش عن السياسة، كما طالب بالعلانية والبعد عن الأجواء السرية للحكم والسلطة في مصر، وقد دفع ثمن رأيه أن دخل السجن الحربي لمدة ثلاثة أشهر.

كتب إحسان هذا المقال مطالبا فيه عبد الناصر بعدم العودة إلى الجيش، وأن ينضم إلى المجتمع المدني من خلال تشكيل حزبي سياسي، وهو بذلك يريد – أي إحسان – ترسيخ دولة المؤسسات المدنية، لكن الجزاء جاء في صورة حبس انفرادي لمدة ٤٥ يوما بدون مغادرة إلا لفترات ((فسحة بناء)) على أوامر جمال عبد الناصر، ثم قام بعدها عبد الناصر بالاتصال بإحسان في محبسه قائلا له أعمل إيه بس يا إحسان؟! ومن بعدها عاش إحسان مرفها في السجن حتى خروجه.

وقام عبد الناصر بالاتصال به تليفونيا داعيا إياه لتناول العشاء في منزله، وعند دخول إحسان إلى منزل عبد الناصر، استقبله استقبال الأصدقاء في حين عامله إحسان معاملة الرؤساء، مما أدهش عبد الناصر فإحسان الذي كان يناديه من قبل ((يا جيمي)) أصبح يخاطبه بـ((يا أفندم)).

أما المعركة الأخيرة حسبما يذكر الكاتب الكبير رجاء النقاش فهي معركة إحسان الدائمة

والمستمرة على امتداد حياته، وهي معركته ضد التقاليد والأفكار القديمة البائدة[١٨].

كانت هذه المعارك كفيلة بأن تنال من هذا الرجل، لكنه بكل صدق وثبات استمر في مسيرته، مؤمنا في داخله بصدق أفكاره، لا تهمه محاولات اغتياله، أو محاكماته العسكرية الزائفة، أو سجنه، فلقد صمد في وجه هذه الحملات الباطلة بقدر ما يستطيع الكاتب الحر أن يصمد، فليس له قوة إلا قوة قلمه، وقوة إيمانه بما يدعو إليه.

وارتبط إحسان عبد القدوس بالرئيس الراحل أنور السادات بصداقة امتدت إلى ما قبل الثورة، وكان إحسان هو أول من عين الرئيس السادات في ((دار الهلال)) واستمرت الصداقة بينهما على ما يرام حتى بعد أن تولى أنور السادات رئاسة الجمهورية بفترة قصيرة، حيث عرض على إحسان عبد القدوس أن يكون وزيرا للثقافة ورفض إحسان.

وكانت رؤية إحسان عبد القدوس للمجتمع تتمثل في تكوين المجتمع المدني المؤسسي، لذلك نجده يؤسس مجلة ((صباح الخير)) للشباب، وقد انضم إليها معظم رسامي الكاريكاتير الشباب مثل جورج البهجوري وصلاح جاهين... وآخرون كثيرون، ثم نجده يؤسس سلسلة ((الكتاب الذهبي)) الذي أتاح لنجيب محفوظ ويوسف إدريس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد الله وزكريا الحجاوي ويوسف الشاروني الخروج إلى دائرة الضوء وتوفير سنوات من الكفاح للوصول إلى الشهرة، كذلك فإن إحسان عبد القدوس هو صاحب فكرة إنشاء ((المجلس الأعلى للفنون والآداب))، فلقد كتب إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مذكرة بخط يده يطلب منه تأسيس مجلس أعلى للفنون والآداب، أي أن اتجاه إحسان عبد القدوس كان منصبا على تجميع القدرات والمواهب على اختلاف توجهاتها وانتماءاتها الحزبية أو الفكرية في تنظيم أول كيان مؤسسي، وبسبب هذه النظرة الكلية لكل طبقات المجتمع أُتهم إحسان بأنه شيوعي، وأن كل من يكتب في روز اليوسف هو شيوعي، وهو ما ترتب عليه منعه من دخول الأراضي الأمريكية، ثم اتهم بأنه إخواني، ثم قالوا عنه إنه المسؤول المدني في تنظيم الضباط الأحرار.

استطاع إحسان عبد القدوس تطوير أسلوبه الأدبي من خلال نضجه الفني، ومن خلال تطور المجتمع المصري، أي أن المجتمع المصري تحول من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري،

وشهد عديدا من الحروب الطاحنة التي أثرت وبشكل مباشر على التنمية الشاملة، لذلك اختلف تصوير إحسان عبد القدوس للمجتمع المصري فيما قبل الثورة، وفيما بعدها، وقبل وبعد الحرب العالمية الثانية، وقبل وبعد حرب ١٩٤٨م ، وبعد حرب ١٩٥٦م وقبل وبعد حرب ١٩٦٧م.

لقد امتدت فترة الإنتاج الأدبي عند إحسان عبد القدوس طوال مرحلة تاريخية وسياسية من تطور المجتمع المصري وثقافته الشعبية لم يصبغها الكتاب فقط بل الراديو والتليفزيون والسينما، وهي مرحلة امتدت منذ الخمسينيات وحتى التسعينيات، شهدت تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، كان فيها إحسان عبد القدوس رئيس تحرير أكبر مجلة مستقلة هي روز اليوسف، بل صاحب ومؤسس مدرسة صحفية لها صوتها وشخصيتها المتميزة ودورها الوطني الديمقراطي، كل هذا ساعد في أن ينغمس إحسان عبد القدوس كصحفي يمتلك أوسع علاقات مع أصحاب القرار السياسي وأقطاب السياسة والمال والمجتمع، كونت لديه وفرة من دخائل طبقات المجتمع العليا أو نخب السياسية والاقتصادية والثقافية، بجانب أنه تميز بالتركيز على حياة المرأة وإشكالياتها في مجتمع ما زال يعاني ازدواجية التعبير، كما أن المجتمع في شريحته العليا يستعير قشرة من التمدن الأوروبي ويخلطها بالقيم الشرقية.

لقد اكتشفت الرواية على يديه صيغة ديمقراطية بمعنى أنها جعلت جمهور القراء كله على مستوى واحد تقريبا، ويتلصص من خلال تجاربه القصصية المتعددة البانورامية على جراح وأزمات المجتمع المصري خاصة الطبقات المتوسطة والبيئة الأرستقراطية، وخبايا وأسرار مجتمع السادة وأصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي قبل وبعد ثورة ١٩٥٢م.

المبحث الثالث: التأثير الخارجي في تطور الفكر السياسي عند إحسان

عاش إحسان عبد القدوس من مطلع القرن العشرين إلى التسعينيات، وهذه الفترة مليئة بالأحداث الهامة والقضايا الضخمة التي ظهر فيها كثيرا من العظماء والأدباء الكبار. وأثناء هذه الفترة أصبحت مصر ضمن المستعمرات البريطانية، وظل الحكم الملكي في مصر تحت الاحتلال البريطاني حتى عام ١٩٢٢م عندما استقلت مصر عن بريطانيا. ولم يحكم مصر حكام

مصريون إلا بعد ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢م. الدولة المصرية التي تشكلت بعد ثورة يوليو كانت في الغالب ذات حكم الحزب الواحد لكن رغم ذلك كانت التوجهات السياسية تختلف حسب الزعيم التي يتسلم القيادة من مُحَمَّد نجيب إلى جمال عبد الناصر إلى أنور السادات إلى حسني مبارك. فتميز أدب إحسان في القرن العشرين – خاصة في منتصفه – باهتمامه الكبير بقضايا السياسة ومشاكلها، ولا سيما بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، فقد كانت العوامل السياسية عاملاً مهمًا في تحويل أدب إحسان الصحفي إلى السياسي، بخلاف الأدب في الأعمال المصرية الأخرى، إذ كانت العوامل الثقافية الفاعل الأساسي في إبداعه الأدبي.

ويبدو أن تنامي الوعي السياسي في مصر جعل الأديب المصري – وإحسان خاصة – يعيش في قلب الأحداث، وينغمس فيها، فبالتأكيد أن إحسان تأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته القائمة في المجتمع المصري، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع، ولذلك ارتفع أدب إحسان في منتصف القرن العشرين بموضوعاته وأهدافه واقترب من الواقع، ورصف البيئة الروائية الداخلية، وانتقاء القضايا، وبرز الصدق في الدفاع عن قضايا الأمة، وانشغل إحسان في معالجة القضايا السياسية، كالمطالبة بالاستقلال، والحرية وعلاقة المواطن بالسلطة، والديمقراطية، وحرية المرأة، والوحدة المصرية، ويدل هذا على الوعي السياسي للأديب إحسان في تلك الحقبة، وشعوره بالمسؤولية، ويدل أيضا على وعيه بدور الأدب وهدفه باعتباره سلاحًا يقارعون به الظلم، ويحثون به على التقدم، ونيل الآمال.

أولًا: البيئة السياسية الاجتماعية والأوضاع السياسية الدولية

وتناولت قصص ورواية إحسان كثيرا من التيارات السياسية التي تتركز على المرأة والسياسة، فلقد أصبح القرن العشرين الأكثر عسكرة والأكثر عنفًا بالنسبة للأجيال القادمة، ففي هذا القرن اكتسبت الحروب لأول مرة طابعًا عالميًا. وقد انقضى القسم الأكبر منه في أجواء المجابهة المُكلفة والصدام المتعب بين نظامين عالميين، كما تسلحت الدول العظمى بأكثر الأصناف فتكًا من بين أسلحة الدمار الشامل ومع نهاية القرن اختبر العديد من البلدان على نفسه التأثير غير

المدروس أو المدروس بدرجة غير كافية لتكنولوجيا المعلومات ذات القدرة التدميرية الهائلة. فلقد قدم التاريخ السياسي للبشرية أكبر عدد من الصراعات. إن الصراع من أجل السلطة، من أجل الاحتفاظ بها وتوطيدها، كما هو محاولة القضاء عليها، قد خلق كثيرا من الآمال والأحقاد، المخاوف والأطماع، العمل المجهد للعقل عند المفكرين من علماء الأيديولوجيا والسياسة، من الثوريين وأعداء الثورة، من المحافظين والراديكاليين، من المتطرفين والإصلاحيين.

لقد أدى استمرار الصراع السياسي في مصر إلى عدم استقرار الحياة النيابية خلال تلك الحقبة التي نشبت قبل الحرب العالمية الثانية، انخرطت بريطانيا في شؤون مصر بعد تحويلها إلى مستعمرة اقتصادية تستورد جميع السلع الصناعية من بريطانيا ومجبَرة على زراعة القطن لأغراض التصدير. وكان على المزارعين الحصول على قروض، مما كان يعرّضهم إلى الإفلاس كلما انخفضت أسعار القطن ويجبرهم على بيع أراضيهم للإقطاعيين الأثرياء. وتم استبدال المسؤولين المحليين بموظفين بريطانيين، مما أدى إلى تفاقم الاستياء المحلي وانطلاق حركة وطنية.

رغم الهيمنة البريطانية، كانت مصر لا تزال، رسميًا، مقاطعة تابعة للإمبراطورية العثمانية. وعندما تحالفت تركيا مع ألمانيا عام ١٩١٦م خلال الحرب العالمية الأولى، أعلنت بريطانيا مصر محمية خاضعة لها.

نتيجة لذلك، تعاظمت الحركة القومية، وأجبرت أعمال الشغب في بلاد بريطانيا على إلغاء حمايتها عام ١٩١٩م، عندما انتفض المصريون في احتجاجات واسعة النطاق ضد الاحتلال البريطاني. ثم ترشيح زعيم الانتفاضة، سعد زغلول، وهو محام مصري (١٨٥٩م–١٩٢٧م)، ليترأس وفدًا من المصريين للتفاوض مع البريطانيين حول شروط إنهاء الاحتلال. وتم تتويج السلطان (الملك لاحقًا) فؤاد الأول (١٨٦٨م–١٩٣٦م)، سليل مُحَمَّد علي، ملكًا على مصر، ولكن بريطانيا اعترفت بمصر كدولة مستقلة على الورق فقط عام ١٩٢٢م. وبقي النظام القانوني والاتصالات والدفاع وقناة السويس تحت السيطرة البريطانية. وقّع الملك فاروق، الذي اعتلى العرش عام ١٩٣٦م، على المعاهدة المصرية البريطانية ومدتها ٢٠ عامًا، والتي أنهت الاحتلال البريطاني ومنحت القوات البريطانية الإذن بالبقاء في منطقة قناة السويس.

كما عانت مصر أيضا من عدم استقرار السلطة التنفيذية فتعاقبت الوزارات في مصر والتي كانت عمر كل وزارة منها عدة شهور في المتوسط وعليه كانت لا تستطيع تنفيذ سياستها، فلقد كانت تجربة الديمقراطية الليبرالية في مصر قبل ثورة ١٩٥٢م تحمل ديمقراطية شكلية، وكان الحكم الفعلي كما رأينا في يد إنجلترا والملك مع نخبة محدودة من البرجوازية المصرية كانت لها مصالح شخصية مع القصر، وإن كنا لا ننكر أن هذه الفترة كانت تتمتع بالتعدد الحزبي وإن كانت كلها تعبر عن مصالحها البرجوازية الكبيرة المصرية التي شاركت في صنع دستور ١٩٢٣م وهي التي تشكل منها البرلمان والسلطة في مصر[١٩].

كانت الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢م تعتمد في نشأتها على القيادات دون القواعد التنظيمية، وارتبطت هذه الأحزاب بشخصية الزعيم معتمدة على صحفها كأداة للخطاب السياسي إلى جانب الخطاب في المناسبات السياسية والاجتماعية أيضا.

ثانياً: تيارات الوعي في القرن العشرين بمصر

نجد أن المحاور والقضايا الفكرية السياسية التي شغلت المفكرين والأنظمة والحركات السياسية والإصلاحية في القرن العشرين بمصر هي: القومية العربية، والديمقراطية، والوحدة، والاشتراكية، والاستشراق، والصهيونية، والتقدم الفكري، والليبرالية، والغزو الثقافي، وعودة الاستعمار.

أ- القومية العربية

بدأت الحركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وشغلت بالتحرر من الاستعمار وتحقيق الاستقلال، ويبدو أنها بتحقيقها هذا الهدف قد استنفدت أغراضها، فقد بدأت بالتراجع والتلاشي. وفشلت مشاريع الوحدة العربية وحلت مكانها الدعوة الوطنية، ولم يعد للقوميات مكان في العالم كله وحلت مكانها دعوات الديمقراطية وحقوق الإنسان والتنمية والتفت العالم إلى قضايا البطالة والتعاون الدولي وتبادل الخبرات والتقنية والتقدم الزراعي والصناعي والاقتصادي. ولم تكن الدعوة القومية نتيجة نهضة صناعية وبروز طبقة برجوازية كما هو الحال في القوميات الأوروبية.

ب - الحرية

ماذا قدمنا لمفهوم الحرية المصرية في هذا العصر؟ وإلى أي مدى تقدم مشروع الوحدة المصرية في هذا العصر مقارنة بما كان عليه في النصف الأول من القرن العشرين وفي مرحلة الصراع مع الاستعمار ونيل الاستقلال السياسي؟

لقد تعثر مشروع الحرية المصرية في هذا العصر وتأخر خطوات كثيرة عما كان عليه في النصف الأول من القرن العشرين، وعاد المجتمع المصري إلى ما كان عليه في العهد العثماني من استبداد وفشل وهيمنة للعسكر على الحياة العامة وهيمنة المؤسسة الدينية على التعليم والثقافة، وكانت مظاهر هذا التأخر والتراجع في الحرية شاملة للمستويات السياسية والثقافية والاجتماعية، فقد نصت معظم الدساتير العربية على أن للحاكم الحق الإلهي المطلق في الحكم وحل المجالس النيابية، وظهرت أنظمة حكم عسكرية عائلية وعشائرية، وأممت الصحافة، واعتقل المثقفون وعذبوا وأعدموا وتراجع النشر والبحث، وهيمنت الأمية، وهرب الكثير من العلماء والمفكرين والصحافيين إلى خارج العالم العربي.

ج - الاشتراكية

بدأت الاشتراكية والأحزاب الشيوعية العربية في الظهور والتأسيس فيما بين عشرينيات القرن العشرين وأربعينياته، وفي العام ١٩٥٠م عقد في بيروت مؤتمر للأحزاب العربية الاشتراكية، واستطاعت الأحزاب القومية الاشتراكية الوصول إلى الحكم في عدة دول عربية وشاركت الأحزاب الشيوعية في الحكم. وتكون خطابا اشتراكيا طاغ ومهيمن يصفه المؤلف بالعاصفة الاشتراكية، وخلف هذا الخطاب بعد العاصفة فرقة دكتاتورية وتبعية اقتصادية وهجرة لرؤوس الأموال وصدا للاستثمارات الخارجية وفوضى في الإنتاج والأسعار وزيادة في الاستيراد وقولبة في الثقافة وإقصاء للآخر.

د - الديمقراطية

كان لبنان هو مركز الإشعاع الديمقراطي في العالم العربي فانطفأ هذا القلب، وضعفت الأحزاب السياسية العربية، وحدث اشتباك عنيف أحيانا وسلمي أحيانا أخرى بين المد

الإسلامي المتصاعد وبين الديمقراطية، وإن الديمقراطية تواجه عوائق سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية وأن تحقيقها يحتاج إلى إصلاح التعليم والمؤسسات الدستورية، وأيضا عدم تحقيق الديمقراطية يعود إلى مجموعة كبيرة من الأسباب تزيد على الأربعين منها: الصراعات الطائفية والقبلية، واختفاء الطبقة الوسطى، وافتراق التطور الاجتماعي عن التطور الاقتصادي، والفكر الديني المناهض للديمقراطية، وعدم إيمان الأحزاب والنخب السياسية بالمشاركة والديمقراطية، وقيام دولة إسرائيل، وتداعيات الصراع العربي الإسرائيلي، وغياب الآليات الفنية لتطبيق الديمقراطية، والنفوذ الأجنبي.

هـ - الغزو الثقافي

يعتبر إجابة مثقفي بلاد العالم الثالث بالشلل أكثر وسائل الغزو الثقافي فعالية، وإن اتفذ صورة بريئة، وتأتي إجابتهم بالشلل عن طريق استغراقهم في أعمال لا تسهم في التطور الفكري المستقل بهذه البلاد وتربط مثقفيها بعجلة الفكر الغربي تحت شعار التنمية. وتبقى المشكلة قائمة وكامنة في كيفية حل المعادلة الكيميائية المكونة من التراث العربي والثقافة العالمية المعاصرة والمتطلبات الثقافية المرغوبة للمجتمع العربي المتطور.

الخاتمة

لم ينفصل إحسان عبد القدوس عن الأدب منذ أن كان طفلاً، ونشأ وترعرع في مصر التي كانت مليئة بسلسلة من الثورات النشطة منذ العشرينيات وحتى التسعينيات، وفي مثل هذه البيئة الواقعية تأثر حتما بهذه الروح الثورية ثم عززها في إبداعاته الفنية، وهو يولي في إبداعه الأدبي أهمية كبيرة للسياسة، وهو ما يجعله يختلف عن كثير من الكتاب المصريين، ولأعمال إحسان أهمية واقعية قوية، ويمكن القول إن العديد من رواياته هي روايات سياسية مليئة بالواقعية، والأفكار السياسية المجسدة فيها هي القوة الدافعة وراء عجلة التقدم في العصر المصري يحتل مكانة هامة في تاريخ الأدب المصري.

الهوامش

١ فؤاد قنديل، إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦م، ص ١٠.

٢ أميرة أبو الفتوح، إحسان عبد القدوس .. يتذكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ص ١١.

٣ فؤاد قنديل، إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، ص ٢٩.

٤ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٢.

٥ فؤاد قنديل، إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، ص ٣٢.

٦ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٢

٧ أميرة أبو الفتوح، إحسان عبد القدوس .. يتذكر، ص ١٦.

٨ أميرة أبو الفتوح، إحسان عبد القدوس .. يتذكر، ص ١٢/ ١٣.

٩ أميرة أبو الفتوح، إحسان عبد القدوس .. يتذكر، ص ٦٩.

١٠ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٢

١١ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٢

١٢ عبد الرحمن أبو عوف، الرواية السياسية عند إحسان عبد القدوس، المقال من مجلة الديمقراطية، ١٩٩٨م.

١٣ إدجار فيليب جلاد باشا صحفي مصري صاحب مؤسسة صحفية تصدر جريدة ((الزمان)) المسائية و((جورنال دي إيجيبت)).

١٤ الطاهر مكي، عميد الدراسات الأدبية، نشر في أكتوبر يوم ١١، مارس، ٢٠١٢م.

١٥ إحسان عبد القدوس، صانع الحب، مكتبة الأخبار، ١٩٤٩، ص ١

١٦ فؤاد قنديل، إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، ص ٧٤.

١٧ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٢٧.

١٨ نرمين القويسني، إحسان عبد القدوس الأمس واليوم وغدا، ص ٥٤.

١٩ عبد الباسط حسن عبد العزيز، مصر في القرن العشرين، جامعة الأزهر، ٢٠١٤م، ص ١٦٢/١٦٤.

المصادر والمراجع

١. طه وادي، دراسات في نقد الرواية، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م.

٢. حسين مروة: (علاقة السياسي بالأديب في المجتمع العربي)، الموقف الأدبي، سوريا، دمشق، اتحاد كتاب العرب، العدد ١٧١، ١٩٨٥م.

٣. صالح سليمان عبد العظيم، سوسيولوجيا الرواية السياسية، يوسف العقيد أنموذجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

٤. د. حمدي حسين: الرؤية السياسية في الرواية الواقعية في مصر(١٩٦٥-١٩٧٥)، مكتبة الآداب، ط ١، ١٩٩٤م، القاهرة، مصر.

٥. جاك رانسيير، سياسة الأدب، ت: رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

٦. د. سعيد علوش: (رواية الأطروحة و الرواية المغربية)، الأقلام، العراق، العددان: ١١-١٢، ١٩٨٦م.

٧. د. سعيد علوش: المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبوعات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٨. د. سماح إدريس: المثقف العربي و السلطة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢م.

٩. عصام سليمان، مدخل إلى علم السياسة، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.

١٠. د. سمير روحي الفيصل: السجن السياسي في الرواية العربية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط٢، ١٩٩٤م.

١١. طه وادي: (السياسة و الفن في الرواية المعاصرة)، مجلة كلية الآداب، مصر، جامعة القاهرة، العدد١المجلد ٥٠، مايو سنة ١٩٩٠م.

١٢. مُحَمَّد منيب البوريمي: الفضاء الروائي في الغربة: الإطار و الدلالة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٤م.